الطبائع الأربع:

طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العصر والحركة..

هذه طبائع أربع تتفرق فى الناس وقلما تجتمع فى إنسان واحد على قوة واحدة. فإذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة، وتلحق الأخريات بها فى القوة والدرجة على شىء من التفاوت.

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها: تدعونا إلى الحلول من الكون فى أسرة كبيرة.

وطبيعة التفكير تثير فى نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء: تدعونا إلى الحلول من الحلول من الكون فى معمل كبير.

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة فى سرائرنا، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها فى قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا، أو صنع قرائحنا وأيدينا، أو صنع قرائحنا وأوصالنا، تدعونا إلى الحلول من الكون فى متحف كبير.

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف تتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها، وتجذبنا إليها فنستمد منها القدرة التى تجذبها إلينا: تدعونا إلى الحلول من الكون فى ميدان صراع ومضمار سباق.

وقلما تشعر بالكون بيتًا لأسرة، ومعملا لباحث، ومتحف فن، ومضمار سباق فى وقت واحد. إنما هى حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات، وقد تلحقها بها إلحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل.

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر فى كل طبيعة:

كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا يغير الدنيا بعمله ولكنه ﷺ كان عابدا قبل كل شيء، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله، وكل سجية فيه.

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه فولد فى بيت السدانة والتقوى، وتقدمه آباء يؤمنون بإيمانهم، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه.

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير.

وتكون فى بنيته عابدا من صباه..

قيل إنه فى الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ فى تفسيرها، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندرى ما هو الواقع الصحيح منها، ويتعجل بعض المؤرخين الأوروبيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمى أو تاريخى محقق يستند إليه

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون ليلتقى الوحى الإلهى، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه، لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى ايام ولا فى أشهر ولا فى سنوات ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه، ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع.

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه السلام إذ نزل عليه الوحى نكس رأسه، وكرب لذلك وتربد وجهه، وأخذته البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى، وسمع عند وجهه كدوى النحل، وقد يصدع فيغلق رأسه بالحناء. وقد شاب فقال: "شيبتنى هود وأخواتها" وعدد حين سئل عن

أخوتها سورا أخرى من القرآن الكريم وليس هـذا من خليقة كل بنية إنسانية: إنما هو خليقة البنية التى تتلقى وحيا وتستوعب سرا وتهتز لنبأ عظيم.

***

صفة العابد:

وكانت أوصـافه فى غيـر حالة الوحى توافق الاسـتعداد الذى يرشـحه لتلقى الوحى والنبوة فكان حسا كله وحياة كله. يراه من ينظر إليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسـية وكل نبأة خفية يسرع فى مشيـئته ويلفت فيلتفت بكل جسمه، ويشـير فيشير بكل كـفه، ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء، ويدعو فيـرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ويغضب فتـحمر عـيناه ووجنتاه، ويمتلئ عـرق جبينه وينام وقلـبه يقظ لا ينام: حس مرهف يدنى إليه ما وراء الحجـاب، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن، ويجعله أبدا فى حالة قريبة من حالة الوحى حيثما هبط الوحى عليه.

هذه صفة عابد يفكـر ويعبر ويعمل، وليست بصفة عـابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتـفكير، أو يعـمل كمـا يعمل بعض النسـاك الذين هزلت بنيـتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة.

كانت عبـادة محمد خلوا بالنفس إلى حين، أو عـجبا من بدائع الكون التى ألفـها الناس لأنهم لم يوهب لهـم فى أبصارهم وبصـائرهم تلك النظرة الجديدة التى ترى كل شيء كأنه فى خلق جديد.

ما أعظـم دهشة الناظر أن يرى الشـمس قد خلقت اليـوم أمام عيـنيه. دهشة لا تعدلها دهشة..

وهى هى دهشة العـين التى أبت أن تكل من الألفة لأنـها أبدًا فى نظر جديد، أو فى نظر إلى كل منظور كأنه مخلوق جديد.

وهكذا كانت عبادة محمد ﷺ: عجب نمن بدائع الكون فى كل نظرة يرها لأول مرة، وتفكير فى الخلق ينتهى إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب، ولا يزال أبدًا بين العجب والإيمان.

وإن محمدا باعث الإيمان إلى القلوب، لقد كان يجدد إيمانه كما يجدد عجبه كل يوم وكان يدعو الله فيقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك" . . وقبل له فى ذلك القول: "إنه آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من صابع الله. فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ".

حركة متجددة فى الحس وفى الفكر وفى الضمير.

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع.

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع.

وإنما هو تفكير من ينتظره العمل، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل فى الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك: ثلث أيامه وثلثها لأهله وثلثها لنفسه وما كان فى فراغه لنفسه ولا لأهله شىء يخرجه عن معنى عبادة الله والاتصال بالله، على نحو من التعميم.

بهره الجمال من صباه: جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء، وجمال الوجوه التى يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير. إنما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال وإنما جمال الله هو الذى قد كان يدعوه إليه، كلما نظر إلى خلق جميل.

فكر فى الخلق فآمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر. فقال "إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليق: آمنت بالله ورسوله".

تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى إليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل

وتعليم الناس عبادة وعملا، ولم يخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك. وإنا لنسأل مع هذا: إلى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا فى شكوكهم وتطوحوا بها إلى قصوى ما تفرضه الفروض؟

إلى أبين انتهى "كانت Kant إمام المفكرين فى هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث، إن لم نقل الحديث والقديم؟

انتهى إلى أن النفس نفسان والوجود وجودان: نفس حسية ونفس حقيقية.. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود.

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع إلى قرارها، ثم لا تتخطى بإدراكها عالم الباطن إلى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصوير الكلام..

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان؟ وأن المرجع غاية المرجع إنما هو الإيمان ولا شىء غير الإيمان؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود إليه لنسأله ونسمه منه فماذا يقول؟..

ويقول لنا إن العدم معلوم فالوجود إذن موجود، وإنك إذا أمنت بالوجود فلا مناص لك من الإيمان به فى وصفته لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق إليه العدم.

وما الفارق بين الإيمان بالله والإيمان بالوجود فى صفته المثلى؟

هنا ينتهى الإيغال فى الفروض والشكوك.

وهناك انتهى الإيمان، بغير إيغال فى فروض ولا شكوك.

ألا تتلاقى النهايتان؟.. أولا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطو الإيمان؟

لهذه السنة التى استنها النبى ﷺ فى عبادته الروحية والشكوك حيث كثرت وصاياه بإدمان التفكير فى خلق الله واجتناب الفكير فى ذات الله فقال فى حديث: "تفكروا فى آلا الله ولا تفكروا فى الله" وقال فى هذا المعنى: "تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا" وقال فى حديث قدسى: "كنت كنزاً منخفيًا فأحببت أن أعرف، فحلقت الخلق لأعرف" أو كما جاء فى رواية: "فتختلف الخلق فبى عرفونى".

***

طريق الوصول:

وخلاصة هذه الأحاديث وما فى معناها أن التفكير فى حقائق الوجود هو الطريق الوصول إلى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة: إيمان بالوجود الأبدى فى صفته المثلى، وتفكير فى حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها وذلك قصارى ما عند العقيدة. وقصارى ما عند الفلسفة، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده. وهذه هو العلم الذى فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة، وقال النبى فى رواية ابن عباس: "أنه أفضل من الصلاة والصيام والحق والجهاد فى سبيل الله" لأنه سبيل الوصول إلى الله.

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى، وأن النبى يعلم جميع الناس والإيمان، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد. فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون، ولا يبلغون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالخالق والتفكير فى الخليقة فإما هذه الهداية وإما الضلال الذى لا هداية وراءه وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال.

***

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى توحى إليه "عبادته الروحية"..

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين: يصلى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يبتعها كل مسلم، وقد يطلب إلى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه..

"فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه" وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت "لا أرضا ولا ظهرا أبقى" لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كم يتلقون الأمر بفريضة واجبة، فهم فى حاجة إلى الرفق والتيسير.

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء.

***

وكان محمد "إذا حزبه أمر صلى".

كذلك إذا حزب الأمر نفسا رجعت إلى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة.

ومتى وجدت النفس "فرحة اللقاء" فى الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولاسيما إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها. ولا يحسب أحد يعرفها أنه تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها، أو عن حق من حقوق بنى الإنسان.